المرافعة الأولى : المدنيّة

الفصل الثالث : مجتمع المدنيّة في المدينة

(عصر الآلهة المقنّعة والملوك المتسترين)

1-المقدمة :

تناول القائد عبدالله أوجلان في الفصل الثالث من مرافعته الأولى ، مجتمع المدنيّة في المدينة حيث شرح المجتمع السومري شرحاً توضيحياً ، تفصيلياً ،موضحاً فيه أموراً عدة أهمها : تأثير ثقافة تل حلف على المجتمع السومري ، والوظائف الثلاث للزقورات (معابد مدرجة) ، وتعريف واسع لشخص الكاهن ولوظائفه وأعماله الأساسية في تلك المعابد ، كما بين أوضاع المرأة والعائلة في نظام الزقورات ، وشرح دور الزقورات التجاري الهام ، مبيناً نشوء نموذج أولي مصغّر من مجتمع الدولة الجديد في أطرافها ، وظهور دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة ، حيث تطورت السلالاتية نتيجة قلب نظام المرأة –الأم ، وتجذرت الإدارة البطرياركية والأبوة ، ليقترب بذلك مجتمع الدولة الجديد من المجتمع الطبقي ، وليبدأ مجتمع المدنيّة المعبّر عن الثقافة الذكورية السلطوية بالظهور والانتشار كموجة ثانية مشابهة لسياق انتشار ثقافة المجتمع النيوليتي المنبثقة من الهلال الخصيب نحو جميع أرجاء العالم ، ومحللاً بذلك المدنيّة ، ومفسراً سبب حاجة مجتمع المدنيّة والتي تنعت بحضارة المدينة إلى التقنّع ، ومسلطاً الضوء على دور الأنشطة المؤسساتية في مجتمعات المدنيّة ، مبرزاً قضايا انتشار مجتمع المدنيّة ، بدءاً من قضايا توسع المدنيات ذات الأصول السومرية والمصرية ، ومروراً بالتطورات الحاصلة في ثقافة الصين والهند والهنود الحمر ، وانتهاءً بقضايا توسّع المدنيّة ، وقضايا المقاومة ، ليستخلص إلى نتيجة مفادها : إن مواضيع الثقافة الأيديولوجية والثقافة المادية شائكة ، لكنها في الوقت ذاته حقائق تقتضي البحث والتدقيق ، ليختتم بذلك القائد أوجلان مرافعته الأولى .

2-مرحلة تل حلف وأثرها في المجتمع السومري :

تميزت مرحلة التمأسس النيوليتي ، والمسماة بمرحلة تل حلف ،بالغذاء الوافر والمتنوع ، والتي مرت بفترة ازدهار باهر ، وهي تقع إلى الشمال من الحضارة السومرية المُنشأة في الحقول القصبية الرسوبية ، والأراضي الخصيبة المطمورة بالمياه في أماكن تقارب نهري دجلة والفرات ، وامتزاجهما ضمن أراضي ميزوبوتاميا السفلى ، والذي أدى إلى ذلك هو المجتمع القروي الذي أسفر عن الذهنية المكتشِفة لتقنيات الإنتاج التي لعبت دوراً كبيراً أيضاً ؛ فالاستقرار يعني الحقول والتمأسسات الاجتماعية المتنامية بتغذية بعضها بعضاً ، أما التمأسس فيعني فيما يعنيه تنظيم الذهنية المجتمعية وتحقيق جماعيتها ، فالشروط المناخية الملائمة ، والأمطار الغزيرة تجعل من الري ثانوية ، ومحدودية نطاق الري ، واعتماد الغلال على الأمطار ، قد أعاقا التوسع وزيادة التعداد السكاني ، وعلى الرغم من أن الأراضي الواقعة أسفل نهري دجلة والفرات ملائمة جداً للري ، وتربتها خصيبة معطاء ، إلا أن المستوطنين الريفيين الأوائل قد انحدروا إلى المجتمع السومري من الشمال ، من ثقافة تل حلف ، والتزايد في التعداد السكاني قد أرغم الأهالي على الحراك الدائم ، وإلى الزيادة والاتساع في القرى ، والانتشار في الجهات الأربع ، وكلما زاد الانتشار هبوطاً نحو الجنوب ، حيث الأمطار القليلة ، زادت الحاجة الحتمية إلى الري ، واستوجب وجود تنظيم شامل ، والذي تحقق حول المعابد المسماة بالزقورات .

3-تعريف الزقورات :

هي معابد مدرّجة ، فهي اشبه بنموذج مصغّر بمجتمعات المدنية اللاحقة على صعيد التأثير المعنوي ،إنه تمأسس مثالي لدرجة أنه غدا النموذج الأصل المولّد لمجتمعات المدن الراهنة ، والتي يناهز تعدادها مئات الآلاف ، ويزيد عدد سكانها عن الملايين ، فهو يُعد الرحم الأم لنمط تنظيم الدولة المتأسسة في مجتمع المدينة ، فالزقورات في زمانها ، لم تكن مركز المدينة فحسب ، بل هي المدنيّة ذاتها ، والمدائن بدورها كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1- المعبد (منزل أو موطن الرب)، وهو قسم معني بتوليد المشروعية و تمكينها .

2- قسم الإقامة الأوسع قليلاً ، والمخصص لمدراء المدينة .

3- الأماكن الأوسع قليلاً لإقامة العاملين ، الذين يشكلون الشريحة الأوسع .

فالزقورات تؤدي هذه الوظائف الثلاث معاً ، كأول مثال من نوعه في العالم .

4-الوظائف الرئيسية الثلاث للزقورات :

تتميز الزقورات بثلاث وظائف رئيسية ، ذات أهمية حياتية وهي :

1- الوظيفة الأولى : يزاولها العاملون ضمن الأراضي ، والذين يمكثون في الطابق السفلي ، ويعدون من أملاك الزقورات ، ويقيم معهم أيضاً صانعو الأدوات والوسائط .

2- الوظيفة الثانية : وهي المهام الإدارية التي يزاولها الكهنة القاطنون في الطابق الثاني ، إذ يتوجب على الكاهن حساب الأعمال الإنتاجية المتعاظمة ، وتأمين المشروعية اللازمة (قوة الإقناع) لتحقيق العمل الجماعي بين العاملين ، فالكاهن بذلك يدير شؤون الدين والدنيا معاً .

3- الوظيفة الثالثة: تزاولها الموجودات الإلهية في الطابق الثالث .

وبناءً على مجمل الوظائف الرئيسية السابقة ، فالزقورات لا تُعنى بالدولة والإنتاج الوفير والمجتمع الجديد فحسب ، بل وتُعنى بإعادة البناء والتخطيط لعالم كافة المصطلحات ، الحساب ، السحر ، العلم ، الفن ، العائلة ، بل وحتى المقايضة الأولى ، إلى جانب الاهتمام بشؤون الرب ، علاوة على إعادة تخطيط وبناء كل ذلك ، وربطه بمشاريع ملموسة ، والكاهن هو المسؤول والقائم والمشرف على تلك الأعمال .

5- الكاهن وأعماله الأساسية :

الكاهن أول مهندس للمجتمع ، وأول معماري ، وأول رسم تخطيطي للنبوة ، وأول اقتصادي ، وأول مدير ، وأول رئيس عمل ، وأول ملك ، وهو المبادر الأول ، فهو رأسمالي زمانه ، ورب العمل أو الآغا ، لأنه مهتم بوظائفه التاريخية الموكلة إليه ، وهو مؤسس المدنيَّة ، و المُمهِر

للمجتمع الجديد بطابعه ، ذات صلاحيات لا حدود لها ، وأعمال لا تحصى ، ولعل أهمها هي :

1- تأسيس الدين الجديد والإله الجديد ، يأتي في صدارة الأعمال المهمة للكاهن ، وذلك لأن جوهر اختراع السومريين للدين يتجسد في تشكيل حلقة الوصل ، لسد ما يبدو وكأنه فراغ ، أو انقطاع لمرحلة الانتقال من عبادة الطوطم (أي كيان يمثل الرمز للقبيلة) القديمة ، نحو الأديان الإبراهيمية المتجاوزة للوثنية ، فهم يُنشئون خليطاً من الإله بصفته مصطلح القوة الناظمة للسموات ، ومن دين الطوطمية المحدّد لهوية المجتمع ، ولهذا فالكاهن كان يخصص الطابق العلوي من الزقورات للآلهة ، ويقوم بالتكتم إلى أقصى الحدود على وجود هذا الطابق ، ويوثّق رئيس الكهنة تعليماته بعدم صعود أي أحد إليه سواه ، فهو بذلك يُزيد من تبجيل الناس ، ويثير فضولهم أكثر، ويوطد من تبعيتهم وانصياعيهم أكثر ، حيث يثابر رئيس الكهنة على نشر أقوالهم بين المجتمع بكونه التقى الإله وتكلم إليه في هذا الطابق ، ومن يرغب سماع كلام الرب ، فما عليه سوى النظر إلى كلام رئيس الكهنة ، ذلك أنه الناطق والمفوّض الوحيد باسم الرب ، وهو الشخص الناجح في تركيز فكره في طابق (بيت) الرب ، ولكي يكون تنظيم المجتمع الجديد مؤثراً ، لا بد أن يسير وفق الكلام الدائر في المحادثة بينه ، وبين الرب .

2- هندسة المجتمع ، هي الوظيفة الثانية للكاهن الذي يقوم بالتخطيط للمجتمع الجديد ، وتشييده من جهة ، وبتدبر شؤونه من جهة ثانية ، وكانت هذه المهمة تسيّر في الطابق الثاني من الزقورات أي في طابق الكهنة ، وهكذا ، كان يتكاثر الكهنة كمفوّضين عن الرب ، وبذلك شكلوا طبقة مقدسة تحت إشراف رئيس الكهنة ، وبالتالي شكلوا أول طبقة هرمية (الإدارة المقدسة)كحفنة إدارية معدودة لكل مدينة على حدة ، وقد شهدت غرف الكهنة في الطابق الأوسط وضع اللبنات الأساسية لعلوم الكتابة ، الرياضيات ، علم الفلك ، الطب ،الآداب ، علم اللاهوت ،فالطابق الأوسط في نفس الوقت نموذج مصغّر للمدرسة والجامعة ، أي أن طابق الرب نموذج مصغّر للمعابد ، وطابق الكهنة نموذج مصغّر للمدارس .

ولهذا فلا يمكن استصغار مساهمات الكهنة السومريين في الاكتشافات ، أو إغفال دور اختراعهم الكتابة ، وعلم الفلك والرياضيات والطب واللاهوت

،في ترسيخ الأسس العلمية للحضارة ، حيث كان للكهنة السومريين مكانة الصدارة في مرحلة البدء بالعلم ، ولهذا السبب فقد سُمّي ملوك سومر الأوائل بالكهنة –الملوك ، لأن الكهنة –الملوك هم أوائل ملوك مجتمع المدينة ، فقد كان لكل مدينة في البداية كاهن –ملك ، ودافعهم الأولي وراء إدارتهم الملكية كان في الشرعية المتحققة عبر العلم واللاهوت .

3- ومن الأعمال المهمة التي كان يمارسها الكاهن ، هي قوة الإقناع ، والتي تحتل مرتبة الصدارة في تشكيل أولى مجموعات العمل ،حيث كان يتواجد طابق العاملين في الأسفل ، وهؤلاء العاملون في الطابق الأول ،هم أول من رصّف أرضية الاستعباد ، و القِنانة ، والتمايز الطبقي ، والتحول العمالي ، فالعمال الذين لم يتفاهموا مع قبائلهم، وتنافروا معها نتيجة الاشتباكات القبائلية الناشبة مع زيادة تعداد السكان والهجرات ، ورأوا المعبد ملاذاً لهم ، فقد استفادوا من ازدياد الغلال الذي أفضى إلى تغذيتهم بنسبة أفضل ، مقارنة بالمكان الذي أتوا منه ، وإلى جانب هذا المؤثر ، فقد لعب مؤثر آخر دوراً مهماً ، وهو قدسية العمل في تشييد المعبد ، والمشاركة في إنتاجياته .

6-أوضاع المرأة والعائلة في نظام الزقورات :

لعبت المرأة دورها كموضع عشق في قسم من أقسام الزقورات ، فالذي يُحظى بعشق فتاة من صفوة العوائل ، يكون أمراً مشرفاً ، حيث تؤخذ الفتاة المتميزة على المعبد لتكرس ذاتها له ، فيغدو ذلك مذهلاً في نظام الرهبان ، حيث تتلقى تلك الفتاة جميع دروس الجماليات في نظام سرايا الزقورات ، إلى أن تتمرس ، وتحترف بعض الأنشطة مثل الفن والموسيقا ،كما تعرض على صفوة الرجال الوافدين من المناطق المجاورة لنيل إعجابهم ، وقد تتزوج من أحدهم في حال التفاهم والاتفاق ، وبهذه الشاكلة ، يزيد المعبد من وارداته ، ومن نفوذه أضعافاً مضاعفة ، فالحظيّ بامرأة من المعبد لا يكون إلا من نصيب رجال العوائل النبيلة ، فضلاً عن أن هؤلاء النساء اللواتي عشْن في المعبد ، كنّ يجسدن قوة تأثيره بين صفوف العشائر الجديدة ، ويربطن انفسهن بمجتمع الدولة الجديد ، لأنهن قد تلقين تدريب المعبد ،إنهن أشبه بالعملاء الأكثر إنتاجاً وعطاءً في مجتمع دولة الرهبان الجديدة ، فتحقيق جماعية المرأة على هذا النحو ، يُعدّ نموذجاً أولياً لفن (بيت الدعارة) ، فكلما زاد انحطاط المرأة ،كلما تحولت من إلهة

المعابد النبيلة الفاضلة ، ومن أنثى العشق ، إلى أسوأ عاملة يائسة بائسة ، تعرض نفسها في بيت الدعارة ، والمجتمع السومري هو صاحب شرف او لا شرف ، كونه أول نموذج في هذا المضمار وذلك لأن تنظيم شؤون المرأة في الزقورات السومرية ، قد طُوّر لتسخيرها في خدمة المجتمع والدولة الجديدين .

7- دور الزقورات في التجارة :

للزقورات دور ساطع وجلي في التجارة الناشئة كنشاط اجتماعي حديث العهد ، فهي قد أدت دور المركز التجاري أيضاً في الوقت ذاته ، حيث كان فائض الإنتاج والأدوات التي يبتكرها الحرفيون موضوعاً للتجارة ، وقد بدأ المجتمع السومري بالانتقال من نظام الهدايا والعطايا (بين العوائل والمجموعات)على نظام المقايضة والذي انتشرت فيه ظاهرة التبضع (الإنتاج بغرض المقايضة) ، وبالتالي من المحتمل أن تكون الزقورات مجتمع التجار الأوائل .

و لهذا ، فمن المحقق أن التجارة لعبت دوراً مؤثراً في نظام الكهنة ، فبالإضافة إلى قيام التجار بتصدير فوائضهم الإنتاجية والمتاجرة بها ، فقد كانوا مضطرين لتغطية نسبة ملحوظة من احتياجاتهم الناقصة ، (ثمة العديد من المواد الناقصة للمدائن الموجودة في الوادي السفلي من ميزوبوتاميا ، وبالتالي ، فالتجارة أو الاستيلاء ضرورة اضطرارية ، وربما تم القيام بكليهما) ، فهذا هو الهدف من ترسخ نظام المستوطنات الذي اكتنف المنطقة كشبكة عنكبوتية ، ولهذا الغرض بالذات أقيمت العديد من المستوطنات على ضفاف نهري دجلة والفرات .

وبناءً على ما سبق ، فمن المؤكد قيام نموذج أولي مصغّر من مجتمع الدولة الجديد في أطراف الزقورات ، والذي يعد أول نموذج ملموس لصعود مجتمع الدولة على أرض الواقع ، والذي أثر في نظام المدنيّة برمته ، يرجع في أصوله إلى الزقورات السومرية ، وبهذا تكون ولادة المجتمع المدنيّة الدولتية قد تمت في رحم معابد الكهنة .

8- ظهور دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة :

ظهرت دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة ، والسلالة في مستهلّ تشكلها ،تعد انطلاقة هوياتية ، وهي الأمتن والأمنع ضمن سياق التطور الاجتماعي الذي حصل بين صفوف المجموعات اللغوية ، والثقافية الآرية ، فمنبع هذا التطور هو المجموعات الآرية ، وليس المجتمع السومري ، وبلا ريب أن تاريخ السلالات قديم ووطيد في ميزوبوتاميا ، فمع تمايز الأثنيات إلى هويات متباينة ، كان لا بد من بدء التطور السلالاتي ضمن نظام العشيرة والقبيلة ، بحيث تلتف الشخصيات الخبيرة بشؤون الذود عن القبيلة وصونها ، وبشأن مَوْقعتها في المناطق المعطاء وحل مشاكلها الداخلية ، ومن المحتمل بروز عائلة أو عشيرة ما للأمام أكثر ، بحيث تشكل إدارةَ القبيلة أو تستولي عليها ،ولا شك أن رضا أعضاء القبيلة عنها ، وقبولهم إياها أمر معين في ذلك ، كما أن أواصر القرابة فيما بينهم لا تزال سائدة ، ولا تسمح بوجود أي دخيل داخلها.

وبلا شك ، فإن النظام السلالاتي يمتاز بخاصية مهمة ، وهي أن رغبة العائلة ومؤسسة العائلة في امتلاك عدد جم من الأطفال الذكور ، تعتبر اللبنة الأساسية للأيديولوجية السلالاتية ، أي أن تعدد الزوجات ، والرغبة الدائمة في إنجاب الأولاد الذكور ، هما المرام الأولي للأيديولوجيا السلالاتية ، ويكمن الدافع وراء ذلك في امتلاك القوة السياسية .

ففي الوقت الذي كان فيه الرجل (الزوج) في عهد المرأة –الأم ، غير معروف ، وذلك لأن المرأة- الأم كانت لا تبحث عن الجماع الجنسي لأجل اللذة ، ولا تنجر وراء شهواتها ، بل أنها تمارسه بهدف التوالد والتناسل ، والأطفال كانوا ينتمون إلى المرأة –الأم ، بسبب كدحها في تنشئتهم وتربيتهم ، فإنجابها إياهم ، وتغذيتها لهم يمحنها هذا الحق طبيعياً ، والرجل كان مهمّشاً وقتها ، ولم تُنشأ بعد اصطلاحات الأبوة والزوجية .

إلا أن السلالاتية تطورت نتيجة قلب نظام المرأة -الأم رأساً على عقب أيديولوجياً وعملياً ، وتجذرت الإدارة البطرياركية بتحالف خبرة (الرجل المسن) مع الحاشية العسكرية ل(الرجل القوي) ، إلى جانب الشامان (وهو من يعتمد على استحضار القوى الخفية لتجنّب كارثة ما)، والذي هو نوع من قيادة القدسية التي تسبق عهد الكهنة ، في هذا النظام الجديد المسمّى بالنظام الأبوي .

فخبرة الرجل المسن ، تعبر عن تجارب الحياة المتراكمة ، والرجل العجوز هو الشخص الحكيم الذي تؤخذ مشورته ، وتُنهل منه المعارف والحكم ، والمجموعة بحاجة إليه.

أما الرجل القوي ، فيعبر عن السعي للنفاذ من حصار المرأة-الأم ، من خلال القوة المكتسبة من احتراف الصيد ، ولعل الاتحاد الذي أسسه مع الشباب اليافعين الساعين للاستفادة من خاصيته هذه ، ومن ثم التحالف الذي أبرمه مع شيوخ القبيلة ، قد عزز من النظام الأبوي ضد النظام الأمومي .

وأما الشامان ، فهو يتكفل بوظيفة الكاهن والساحر معاً ، فهو معلم ، وربما أول محترف في المجتمع ، حيث تتأسس مهنية الشامان في المجموعات تدريجياً ، وعلى الرغم من اختلاطها ببعض الشعوذة ، وعادة ما يكون الشامان رجلاً ، ومع تحالف هذه القوى في إنشاء السلالاتية ، فإنها تلحق ضربة قاضية بالنظام الأمومي .

وبلا ريب ، فإن بروز السلالاتية والبطرياركية والأبوّة ،برهان ومؤشر على الدنو من المجتمع الطبقي ، فالسلالات تستفيد من قواها العسكرية لإنجاز الثورة السياسية في خضم منازعاتها مع دولة الكهنة ، وإدارة السلالة شبيهة بنظام سياسي أكثر علمانية ، مقارنة مع إدارات الكهنة اللاهوتية ، حيث تُنشأ إلهيات جديدة ، وتتدنى مرتبة الكهنة ، ليغدَوا نواباً في القيادة السياسية ، وعلى الرغم من قيامهم بأدوار مهمة ، إلا أنهم يخسرون قواهم طردياً ، ويتحولون إلى مروجين مقدّسين للنظام الجديد ، وإلى أدوات ساذجة لتأمين شرعيته ، والملوك المنحدرون من السلالات لم يترددوا عن إعلان ذواتهم (ملوكاً-آلهة)، بهدف الاستفادة من درع الشرعية التي تؤمّنها لهم طبقة الكهنة المؤسسين للدولة ، ويتجذر التمايز الطبقي مع مرور كل يوم ، ويتزايد تعداد المدائن ، و يُثبِت نمط المجتمع المسمى ب (المدنيّة السومرية) ديمومته وتمأسسه عن جدارة ، وهكذا نقلت السلالاتية في مجتمعات الشرق الأوسط تقاليدها الغائرة في القدم إلى يومنا الراهن ، لذا ، فعدم تطور أنماط نظم الجمهورية والديمقراطية في الشرق الأوسط ، مرتبط عن كثب بالتدول النابع من نظامي الكهنة والسلالات .

9- مزايا ثقافة مجتمع المدنيّة :

إن ما يميز المدنيّة عن الثقافة كمصطلح ، هو ارتباطه بالتمايز الطبقي ، فالمدنيّة معنية بثقافة الطبقة ودولتها ، وتتميز ثقافة مجتمع المدنيّة ب:

تمأسس المدن ، التجارة ، الإلهيات ، العلم ، تطور البنية السياسية والعسكرية ، بروز القانون على حساب الأخلاق ، ظهور الجنسوية الاجتماعية الذكورية .

10-أهم إنجازات مجتمع المدنيّة :

تُعتبر القوانين أحد أهم إنجازات مجتمع المدنيّة ، وقد برزت تزامناً مع الانقسام الاجتماعي ، والتمايز الطبقي والتدول ، ويرتكز أساس القوانين على الأخلاق ، ولكن ، ومثلما أن تدويل الأديان المشحونة بالقدسية قد حولها إلى دين دولة ، فإن تدويل الأخلاق أيضاً فتح الطريق أمام القانون ، أي أن القانون يعبر عن أسس ترتيب قواعد الأخلاق ، وعن مصالح الطبقة الحاكمة وأملاكها وأمنها في المجتمع الدولتي الجديد ، وهذا بدوره ما يعني (دستور) هذا المجتمع .

ونعثر على أول مثال للقانون في الوثائق المدونة في المجتمع السومري ،والتي تسبق قوانين حمورابي (حاكم عموري من السلالة البابلية الأولى) بأمد طويل ، وبالتالي فموطن ولادة القانون ليس روما أو أثينا ، بل وُلد في مدائن سومر ، اما في عهد أثينا وروما ، فيتم التشديد على أواصر القانون مع الجمهورية والديمقراطية ، ويُضفى عليه الطابع الرسمي ، ويعاد ترتيبه وتدوينه ، أما ولادة الجمهورية والديمقراطية فهي ثمرة تطلّع الطبقة الأرستقراطية (أسياد المجتمع العبودي النخبويين) إلى نمط الإدارة الجماعية ، بغرض سد الطريق أمام المَلَكيّات والديكتاتوريات الاستبدادية (الإدارة المزاجية للأشخاص) ، وبالرغم من مصادفتنا للآثار هذا النمط من الحكم في المجتمع السومري ، إلا أن صياغته الرسمية الأولى المدوّنة ، نعثر عليها في عهد أثينا وروما من سياق الحضارة ، فولادة الجمهورية والديمقراطية ترتبطان بالسعي للتغلب على المصاعب والفوضى وإشكاليات الإدارة ، وإعادة ترتيب شؤونها .

هكذا ستكون النزاعات الدستورية والجمهورية والديمقراطية في ميدان القانون ، في صدارة المواضيع المتداولة في المدنيّة ذات الطابع البرجوازي الأوروبي ، وسيكون الاختراع الأخير معنياً ب (قانون حقوق

الإنسان)، لتطغى عليه الفردانية البارزة ، والممثلية الواسعة النطاق على الصعيد الاجتماعي .

وهنا، يتوجب النظر إلى التقدم العلمي الحاصل كجزء من هذه المعايير الأساسية ، فالعلم شكل من أشكال الوعي ، والميزة الوحيدة التي تميزه عن غيره ، هي تعبيره عن قسم المعرفة التي تَثْبت صحتها بالتجربة ، أي أنه لا يشمل كل المعارف ، بل يحتوي المعلومات ذات المعاني الخاصة التي أثبتت التجربة صحتها ، وبشكل عام ، ما من معلومة غير مجربة ، أما التمييز بين تلك المعلومات المعتمِدة على التجربة ، وغير المعتمَدة عليها ، وبين الوضعية منها والميتافيزيقية ، وبين النظرية منها والعملية ، فيتطور في مجتمع المدنيّة ، وهو أمر مرتبط بعلاقة المعرفة مع السلطة ، ويمكن التعبير عن الروابط بين مجتمع المدنيّة وتصنيفات المعاني تلك على شكل ثنائية المعنى –السلطة ، وهذه التصنيفات الكبرى بين المعاني وتعابيرها العملية الناجمة عن ممارسة المجتمع البشري العملية ، وعن ذهنيته التي مهدت الطريق إليها ، تتعرض للسطو والتزوير على يد الشريحة المتدولة في مجتمع المدنيّة ، فأول ما انشغلت به الشريحة المتدولة ، وأحكمت قبضتها عليه ،هو ترتيبها إياها لتجعلها مصدراً لرؤيتها الاجتماعية وقوتها العملية ، أي أن المدنيّة تُرتّب وتُنظّم في كل طور من أطوارها ، بناءً على براديغما أساسية جديدة (رؤية جذرية ، ونظام جذري للعالم)، وبينما تكون هذه الإجراءات وضعية (ظواهر مرئية)لأقصى حد بالنسبة على الحكام ، فهي بالنسبة للمحكومين تعني الحد الأعظم من التعتيم والتعمية والتقييد ، ولقد كانت الشرعية التي تؤمنها البراديغمائيات الجديدة محوراً أساسياً ودائماً للإدارات ، نسبةً إلى الحكام الذين يمارسون الطغيان علناً ، فقد وضع الحكام كل ثقلهم في كيفية عرض مصالحهم على أنها مصالح المجتمع بل وقدرة المحتوم ، وبقدر ما ينجحون في ذلك ، يكونون قد أطالوا عمر المجتمعات التي تُعتبر حضرية ، وكل مدنيّة تفتقد شرعيتها ، فلا خلاص لها من الانهيار ، حتى لو كانت يوماً ما من أعظم مدنيات العالم .

11-خاصيات مجتمع المدنيّة :

1- التمايز الطبقي : يشكل التمايز الطبقي الذراع والساق المسيّرتين للقوة الممنهجة ،وهو يشكل القوة الأكثر منهجية للسلطة في المجتمع ،و للوياثان

في مجتمع المدنيّة ،فإذا فُسّرت الدولة بأنها تكامل علاقات السلطة الأرقى ، التي تمكّن من القمع والاستغلال عموماً في المجتمع الطبقي ، فحينئذٍ ، يغدو القابعون تحت نير الضغط والاستغلال جزءاً لا يتجزأ من العلاقات هذه ، وسوف تتعدّى المدنيّة نطاق منظومة الدولة ، لتدل على قوة البناء والتنظيم المتكامل لمجمل لميادين ،بدءاً من الدين وحتى الاقتصاد ، وستصبح الوظيفة الأولية لهذه القوة المنظمة ، تشكيلَ عدد لا متناهٍ من المستويات الاجتماعية افقياً ، وشاقولياً ، بدءاً من العبد إلى الرق العامل بصورة رئيسية .

لا بد من التشديد ،على أنه لا تتاح الفرصة أبداً لتكون اليد والقدم ذاتاً فاعلة في بنية القوة المنظمة ، فإذا كانت السلطة تنظيماً مظفراً ، فهذا يعني تحقيق الحاكمية والنفوذ المطلق على كادحيها الذين تنعتهم بالفظاظة ، وإلى فقدانهم قيمة الذات الفاعلة في ظل السلطة ، حتى وإن كانت تلك الذات موجودة لديهم قبل ذلك ، ولهذا السبب لم يحالف الحظ كل تمردات الكادحين والعبيد .

وبناءً على ما سبق ، فالتمايز الطبقي هو من أهم طبائع ومميزات المدنيّة ، لكن المعاني الاستراتيجية المتخذة اساساً في الثورات الطبقية ، بعيدة عن نيل النتائج المرجوة عملياً، حتى وإن تبدّت إمكانية ذلك نظرياً ، فجميع المدنيات والسلطات المنهارة قد أُطيح بها مع عبيدها وكادحيها ، في حين أن نسف السلطات على يد عبيدها او كادحيها ، أمر نادر جداً ، حتى ولو حصل ، فإن السلطة الجديدة لا تعبر عن شيء أكثر من كونها آلة للمزيد من الجور والاستغلال ، حيث يترحم المرء على سابقتها .

2- السلطة : الخاصية التي يجب استيعابها أساساً ، هي مستوى تبعية التمايز الطبقي داخل علاقات السلطة الرسمية ، وماهيته ، ومدى تحليه أو خلوه من المعاني القيمة ، والممارسة العملية ، وسواء أكان السيد والسنيور (السيد باللغة الفرنسية) ورب العمل والبرجوازي في السوية العليا من الطبقة ، أو كان العبد أو القن أو العامل في السوية السفلى منها ، فهم يتلاقون في نفس المقاربة الأيديولوجية والسياسية ضمن علاقات السلطة ، ولا قيمة بارزة لاعتراضاتهم ضمنياً ، فهذه العلاقة تشبه شبكة لها ألف عقدة وعقدة ، فالعامل الذي صيّره الكاهن السومري من أتباعه وعباده ، متأثر بقوة الشرعنة المذهلة للآلهة الجديدة المبتدعة في الطابق

العلوي من الزقورات ،ولو لم يكن كذلك ، لكان من المحال إدخاله إلى هناك ، وهو يتغذى أفضل من السابق ، ويبدو أنه لا طريق آخر أمامه لتأمين تغذية أفضل ، وفضلاً عن ذلك فإنه يجري إنعاش خياله على الدوام بحقيقة الحوريات الحسناوات ، ودغدغته على صعيد إشباع رغباته الجنسية .

وإلى جانب ذلك، فهناك عروض نسائية تسهم في الخنوع للنظام الموجود والاستماتة في الامتثال له ، بدرجة ربما تناهز بأضعاف مضاعفة ما قد تنجزه الجيوش ، أو تقدمه الوسائل الإعلامية الراهنة ! فهذا العبد الجديد المتأطّر في طبقة بحد ذاتها ، ليس متمرداً لأجل الحرية ، بل هو خاين الحرية ، أو يمثل واقعة مفرغة من مفهوم الحياة الحرة ، أو ظاهرة مختلفة كلياً .

3- حالة المجتمع المنفتح على السلطة : وهي خاصية مهمة متأسسة في المدنيّة ، وهي قريبة إلى إعادة تكوين المرأة بموجب تقاليد التأنيث الخنوعي ، إذ لا تضمن السلطة وجودها ، إلا بعد التحقق من إعداد المجتمع على غرار تأنيث المرأة ، ولقد تأسست ظاهرة التأنيث كأقدم مظاهر العبودية ، حصيلة بسط نفوذ المجتمع الجنسوي ، وذلك بعد إلحاق الهزيمة بالمرأة –الأم وعباداتها وطقوسها جمعاء ، إثر صراعات ضاربة وشاملة طويلة الأمد ، على يد الرجل القوي الجبار وحاشيته ، ولربما رسّخ هذا النفوذ المهيمن جذوره في المجتمع ، حتى قبل اكتمال تطور الحضارة ، إنه كفاح عتيد ومتواصل ، لدرجة أن ثقافة المرأة –الأم قد محيت كلياً من الذاكرة ، ولم تعد المرأة تتذكر ما الذي خسرته وأين وكيف ؟ بل وغدت تعتبر الأنوثة الخانعة أمراً طبيعياً ، ولهذا السبب لم تُشرعن أو تُهضم أو تتجذر أية عبودية ، بقدر ما هي عليه عبودية المرأة .

والجدير بالذكر، بأن لهذا التكوين نوعين من التأثير الهدام على المجتمع ، أولهما : فتح المجتمع على العبودية ، وثانيهما: تسيير أشكال العبودية الأخرى كافة ، تأسيساً على ظاهرة التأنيث .

12-دور الدين في مجتمع المدنيّة :

يتستر وراء اصطلاح القدسية إيلاء قيمة ثمينة ، واستثنائية للقوت المستخدم لتغذية الإنسان ، فلدى حظي البشر بالقوت الوفير والمتنوع ، فقد نظر إليه على أنه معادل لهوياتهم المجتمعية ، فقيموه بأنه لطف اللآلهة ، فراحوا يشكرونها ، فالإنسان يعجز حتى اليوم عن إدراك معنى الألوهية كمبدأ تكويني ، وكاصطلاح